المشرق

اتساع التأليف في الاسلام

للكاتب الاديب عز الدين الامير شكيب ارسلان احد اعضاء جمعية المستشرقين الفرنسوية

لا اتعرّض الآن لمقام ما امتاز به سلف هذه الأمة وما حملوهُ من العلم وما وعَوهُ من المعرفة وما بثّوهُ من الانوار وما بثقوهُ من اشعّة الحكمة في آفاق الكُرَة بحيث كانوا في الحقيقة «امّةً وَسطًا» في العلم بين اليونان الاوّلين والافرنج الحدثين فوصلوا فيه بين السابق واللاحق وحفظوا ما خلّفهُ الأوّل وألقوهُ الى الآخر. فاتصلت باجتهادهم نسبة العلم ولم تنقطع بسعيهم اسانيد الحكمة. فإنّ ذلك امرٌ قد عرفهُ الخاصّ والعامّ ونبّهَ قد اشتهر في تواريخ الأيام. وليس من غرضي الآن قرعُ بابهِ ولا خوضُ عبابهِ. وانما قصدتُ بهذه العجالة التنبيه الى ما وصلت اليهِ صناعة التأليف في الاسلام من الاتساع والتشعّب وادركتهُ من التبسّط والتقضي وكيف ترامت اقلام الكتّاب الى ابعد مراحي النظر وانأى مطارح الفكر ممّا يدلّ على ما بلغتهُ المعارف عندهم من العنجهيّة والنموّ وما كانت عليهِ الحالة الفكريّة من الارتقاء والسموّ. اذ ما من مرية ان كثرة التآليف عند قوم وتشعّب الكتابة بينهم يتناسبان مع درجة ترقيهم العقليّ وانّ القلمَ ترجمانُ الفكر وسميرهُ ينطلق بقدر انطلاقهِ ويحتبس بمقدار احتباسهِ

ومن نقّب عن آثار السلف واستقرى خطط اقلامهم وغاص على لآلئ اماليهم واظفرهُ الله بالاطلاع على بعض ما في نفيس الخزائن من تلك الدفائن علم انّهم قومٌ عرفوا قيمة الليل والنهار وقدّروا قدر الاعمار فلم يضيّعوا اوقاتهم سدًى ولا قعدوا عن املاء الفوائد وانّما اشتغلوا وعانوا وسهّدوا الجفون واجهدوا القرائح اكثر مرارًا ممّا يقدرهُ اعظم

الناس توفيرًا لحقهم واشدهم اعجابًا بفضلهم. ولقد قرعوا باب كلّ شيء فلم يدعوا علمًا الّا اجالوا قداحهُ ولا فرعًا من فروع المعلومات الّا اوروا اقتداحهُ. فهم والحقّ يقال قد خدموا المعارف وصدقوها. وتسوّقوا العلوم وتذاوقوها. وشعشعوا الآداب وروّقوها. وان اقلامهم قد سوّدت من الصحف ما ابيضّ لهُ وجه المدنية ونضّدت من المجلدات ما لو جُمع لضاقت عليهِ المكاتب برحبها. فان كان لم يصل الينا جميعه بما أغرق اكثرهُ في الانهار وأحرق بالنار. وتعاورتهُ ايدٍ مختلفة من البوار. فليس عدم الوصول بدليل على عدم الحصول. بلى لقد كتب القدماء مكاتب حدثتنا التواريخ الصادقة وانبأتنا الروايات المتطابقة ان بعضها أُلقي في دجلة عند دخول المغول الى بغداد فسدّ مجراها وجاز الناس على الكتب من جانب الى جانب كأنها جسر ممدود. وان بعضها استنفد عزم النار الآكلة مدّة غير قصيرة من الزمن حتى قضت قضاءها فيهِ. وانهُ كان في عواصم العالم الاسلاميّ مثل بغداد وسمرقند ودمشق والقاهرة وقرطبة وفاس وغيرها من خزائن الكتب التي جمعتها همم الملوك والسلاطين ما لا يُحصيهِ الّا الله تعالى. وقد قيل انّ المستنصر العبّاسي وحدهُ نقل الى خزانة الكتب التي انشأها في المدرسة المستنصريّة على شاطئ دجلة من الكتب النفيسة والاصول المضبوطة مائتين وتسعين حملًا سوى ما نُقل اليها بعد ذلك حسبما رواهُ المؤرّخ ابن الساعي

وحسبك انهُ لما كتب الامير نوح بن منصور السامانيّ الى الصاحب بن عباد يستدعيهِ اليهِ ليسلّمهُ مقاليد وزارتهِ كان من جملة أعذار الصاحب في عدم الاجابة انهُ يحتاج لنقل كتبه خاصّة الى اربعمائة جمل. وهو فرد واحد من وزراء الاسلام اجتمع عندهُ هذا القدر من الكتب فما ظنّك بما اجتمع في مكاتب الخلفاء والسلاطين والامراء والوزراء والعلماء وخزائن المساجد والمكاتب الموقوفة لعامّة الناس. وجميع هذه الكتب الّا النادر الذي لا يُعتدّ بهِ هو مما خطّتهُ اقلام علماء هذه الأمة في جميع العلوم التي عرفوها حتى انّ من دخل مكاتب الاستانة العليّة في هذه الايّام وتصفّح فهارسها مع كون المحفوظ إنْ هو الّا تررٌ مما خلص من ايدي الحدثان وبقيّة عفا عنها الزمان ايقن ان المنشور من آثار القوم المتداول في ايدي الناس هو قُلٌّ من كُثر ولجّة من بحر وان عرائس العربيّة بقيت في خدورها وان كثيرًا من ابكار بنات الافكار لبثت عوانس وراء ستورها وان الواصل الى الايدي من آثار القوم بالمقابلة مع هاتيك الكنوز المدفونة

والجواهر المكتونة لا يصلح ان يؤدي عنها حسابًا ولا يهيئ لهـا صورةً في الذهن ولا يصحّ ان يكون مدارًا للحكم. فانّ في تلك الزوايا خبايا لا تخطر في بال ومدهشات لا تدخل في حسبان ومن وقف عرف. والله يعلم انني كنت اترك كتب العلوم المعروفة والتي تسمى بالآلات واتجاوز ما اعلم ان التصنيف فيـه شيء كثير الى ما اعلم أنّهُ فيهِ عزيز يسير فربّمـا وجدت في المكتبة الواحدة تآليف عديدة في فنون من العلم وضروب من الحكمة وشجون من القول قلّما يُظنّ ان كتبة الشرق اجالوا فيها قلمًا او وطئوا لها عتبة فاذا هم قد اوسعوها بحثًا وسبرًا. وقتلوها علمًا وخُبرًا. وربّمـا وجدتُ صفحات باسرها تحصي كتبَ علوم ما كنت اظن المسلمين مصنفين بها الّا اشارات في حواشي الكتب ورموزًا في تضاعيف المباحث او بالكثير فصولًا في المتون الشهيرة والاصول التي تعتد اصحابها الاحاطة وذلك لما نظنّ من قلّة قيامهم على هذه العلوم واشتغالهم بها والامر فوق ما نظنّ وبعضُ الظن إثم وعدم الاطلاع آفة الحكم. ولا يُظنّنّ ان ما نراهُ من مشهورات التأليف هو ملاك امر العربيّة

ولا ينبغي ان يكون شأن الاديب اذا بحث شأنَ الطفل الذي يرى الافق ممّا يمتدُّ اليهِ نظرُهُ فيظنّ هناك مُنتهى الدنيا وقد خبأ الله وراء هذا الافق جبـال الارض ووهادها واغوارها وانجادها وبحارها وانهارها وبـاطنها وسهولها. واذا شبَّ الطفـل وضربَ في الارض علم انّهُ ما كان يرى من الدنيـا الّا زاويةً تصغر عن ان تتحيّز في اطلس الجغرافية وانّهُ ما كان الّا في غرور. وما اطبقَ مثَلَ الطفل هذا على المتحذلقين الذين يخبطون فيما لا يعلمون ويحكمون على ما يجهلون ويَنْحون خصوصًا على هذه العربيّة والكاتبين بها بالجرح والتعديل وهم لم يقرأوا منها غير بعض المنشور وقد اكتفوا عن اللباب بالقشور. وزعموا انّهُ كافيهم في الحكم وانّهم على شيء من العلم. فأُحيـلُ هؤلاء المساكين اذ كانوا لا يستأنسون الّا بكلام الافرنج على مشاهير المؤرّخين من الاوربيين خصوصًا الذين بحثوا في المشرقيّات ليعلموا فضل الشرقيين وعلوّ كعبهم وبعد همّتهم في التصنيف. وحسبك ما قالهُ العلاّمة سديليو مؤرّخ العرب الشهير عند ما افاض في ذكر احتفال المسلمين بالتأليف وتوسعهم فيهِ وبيّن درجة مزاولتهم للكتابة وخوضهم في جميع المواضيع وهو قولهُ: ان الامام جلال الدين السيوطيّ صنّف من الكتب اكثر ممّا يقدر كثير من الناس ان يقرأ طول حياته. وروى بعضهم انهم قسّموا تآليف السيوطي

على ايام حياته فاصاب كلّ يوم ثمانية كراريس وهو امرٌ يصعب تصديقهُ ولكن مهما يكن من المبالغة فيه فان تآليف الجلال السيوطي رحمهُ الله انافت على الاربعمائة بين كبير وصغير في كلّ علم وفنّ. ومع تعدُّد التاليف العربية وتنوُّعها فقد اطال الكتبة فيها الأعنَّة وتوخوا الاستقصاء. وقلّ ان يوجد كتاب معروف او ديوان مشهور الّا وتعدّدت شرّاحهُ فانّ لديوان المتنبي اربعين شرحاً واحصيتُ لتسهيل ابن مالك ولكتاب سيبويه نحو ثلاثين شرحاً. ومن تآليفهم ما لا يوجد في التآليف العصريّة الاوربيّة اوسع منهُ بسطة واضخم حجماً. وكم تأليف عندهم تجاوز الاربعين مجلداً. وكتاب الايضاح لابي عليّ الفارسي شرحهُ الشيخ عبد القاهر الجرجاني في ثلاثين مجلداً وابن الدهان النحويّ في ثلاثة واربعين مجلداً وتاريخ حلب لابن العديم الحلبيّ روى اليونينيّ انّ بياضهُ يكون في اربعين مجلداً وتاريخ دمشق لابن عساكر ثمانون مجلداً. قال ابن خلكان: قال لي شيخنا الحافظ زكيّ الدين عبد العظيم وقد جرى ذكر هذا التاريخ وطال الحديث في امرهِ: ما اظنّ هذا الرجل الّا عزم على وضع هذا التاريخ من يوم عقل على نفسهِ وشرع في الجمع من ذلك الوقت والّا فالعمر يقصر عن ان يجمع الانسان مثل هذا الكتاب (١

وروى ابن السبكيّ في طبقاتهِ عن تاريخ الطبريّ انّ ابن جرير الطبريّ قال لاصحابهِ: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم الى وقتنا هذا. قالوا: كم قدرهُ. فذكر انهُ ثلاثون الف ورقة فقالوا: هذا يفنى الاعمار قبل اتمامهِ. فقال: انّا لله وانّا اليهِ راجعون ماتت الهمم. فاختصرهُ. وللطبريّ تفسير كبير كان بهذا القدر ايضاً فقصرت عنهُ همم الطلبة فلخّصهُ ايضاً. ومن بعض امثلة هذا المقام كتاب الايك والغصون لابي العلاء المعرّي الف ومائتا كرّاسة. قال بعضهم: انّهُ وقف على المجلّد الاوّل بعد المائة. ثمّ ان ابن عقيل الحنبليّ الّف كتاباً ثمانمائة مجلّد يُظنّ انّهُ اوسع ما أُلّف في العربيّة

وقد انافت تآليف ابي بكر الرازيّ على المائة. وروى ابن خلكان في ترجمة الشيخ ابي العبّاس احمد بن عمر بن سريج الذي كان يلقّب بالباز الاشهب من أئمّة الشافعيّة ان فهرست كتبهِ كانت تشتمل على اربعمائة مصنّف. ورُوي ان تصانيف الامام ابي بكر البيهقيّ بلغت في علم الحديث الف جزء. ومن المؤلّفين العظام بالعربية الحافظ ابو بكر المعروف بالخطيب صاحب تاريخ بغداد ذكر محبّ الدين بن النجّار في تاريخ

(١) راجع المشرق ٢: ١٠٧

بغداد انهُ صنَّف اكثر من ستين كتاباً . وابو الحسين احمد بن يحيى الراوندي لهُ من الكتب المصنفة نحو مائة واربعة عشر كتاباً . والرئيس ابو علي بن سينا له من التصانيف ما يقارب مائة وذكر ابن خلكان في ترجمة الامير عزّ الملك محمد بن ابي القاسم المعروف بالمسبحي الكاتب الحرّاني الاصل المصري المولد صاحب التاريخ المشهور انّ تاريخهُ ثلاثة عشر الف ورقة . وذكر لهُ كتبا عديدة منها الف ورقة ومنها الفا ورقة ومنها ثلاثة آلاف ورقة وعدَّ من هذا النمط في فنون مختلفة بضعة عشر تأليفا ثم قال : ان مصنفاته بلغت الثلاثين ولو شئنا ان نحصي تآليف كبار الكتاب من اهل هذا اللسان مثل ابي نصر الفارابي وفخر الدين الرازي . وحجّة الاسلام الغزالي . وجار الله الزمخشري وغيرهم من الائمة لطال بنا القول وتناءت بنا شقّة الوصف ومن شاء استقصاء هذه الغايات البعيدة في التصنيف والوقوف على ذلك الشأو القاصي في حفظ العلوم بين دفّات المصاحف فعليهِ بكتب التاريخ واسفار الطبقات ومعاجم التراجم يجد كامنةً لهُ فيها العجائب والغرائب

وانّما الذي ادار في خلدي هذا المعنى حتى فاض على سنّ القلم هو ما اطلعت عليهِ هذه المرّة في مدينة دمشق وهو آية باهرة كتاب يسمّى بالكواكب الدراري تأليف ابي الحسن عليّ بن الحسين بن عروة الحنبلي من اتباع الامام ابن تيمية يبحث في جميع العلوم لم اجد اشبهَ منهُ بالانسيكلوبيدية تبسُّطاً واستقصاء . الا انهُ مختلف عنها في الترتيب على حروف الهجاء والمحفوظ منهُ في مكتبة الملك الظاهر اثنان واربعون مجلداً والظاهر ان الباقي المفقود اكثر من الموجود وانهُ يبلغ المائة والعشرين مجلداً لانهُ قد وُجد منهُ المجلد العشرون بعد المائة تاريخ تصنيفهِ سنة ثلاثين وثمانمائة للهجرة اشترك في كتابتهِ جماعة . اما المجلد من هذا الكتاب فهو نحو ٣٥ كراساً تشتمل على ٧٠٠ صفحة من القطع الكامل . ومن الغريب انني لم اجد لهذا الكتاب ذكراً في كشف الظنون مع كونهِ امراً عظيماً مما يدلُّك على عدم الاحاطة وغيب كثير من فرائد اللسان عن الانتظام في عقود الفهارس وان ايدي الضياع قد عبثت بمعظم ما خلّفوهُ من النفائس . ومن اقتنص الآثار واستقصى الاخبار سقط على غرائب مدهشة وخوارق تكاد تكون معجزة فقدّر كم أراق كتبة الشرق من المداد في خدمة النطق بالضاد وكم لهم بذلك من الشرف والاجر . يعتو لفضلهم كل ذي عزّ وفخر